محمد ديريه | نشر في ١٠ يونيو ٢٠١٥,

إنهم يحرقون بستان الكمسري

هذا ليس بستانًا سيدي، لن أتركه ولسوف أعود، كما تعود الطيور المهاجرة إلى أغصانها، كم سأغيب وكم ستدوم الحرب، عامًا أو عامين؟ في الأخير سيموت المتحاربون وتنتصر الحرب، سأعود على المركب ذاته، اتجه غبشًا لبستان الكمسري، سأدخل من جهة دار سعد وسأمشي من مكتب بريد الشيخ عثمان حتى أستظل تحت أطول شجرة، أعرف مكانها جيدًا محاذاة صوت محمد سعد، وهو يغني: مابا بديل .. مابا بديل.

لقد كان جدي هنا حين نزلت الملكة اليزابيث ضيفة على أجمل بساتين عدن وجنوب الجزيرة العربية كلها سنة 1954، وكان أبي ممن خرجوا للوحدة مهللين، ولكن بعد أن تحول البستان العريق إلى مدينة ملاهٍ بعد الوحدة كان والدي أول من اعترض وأول من قال: إنهم يبيعون حتى الشجر، ويحولون البلد لشركة كبيرة بلا رائحة ولا أصوات، إنهم يلمسون أشجار عدن ويشوشون الألحان، كيف سنستمع لصوت محمد سعد وهذه الألعاب تنتصف الحديقة كغول رأسمالي في تربة اشتراكية، كيف لفيصل أن يوزن أوتار عوده، كي يغني لمحبوبته في البستان، وكنت طفلًا حين داعبت كرة القدم للمرة الأولى هاهنا، وسقطت في حفرة لم تردم جيدًا، برأسي شجة من تلك السقطة، ولكني فخور بهذه الشجة، سيبقى من الكمسري شيء على جسدي، كما وشمت ذكرياته قلبي وقلب أبي وجدي.

أول الحب .. كان هنا، وكل الأغنيات مرت من هنا، رويدًا جلست بالقرب من ذلك الماء، العطروش ابتسم وصوته يلون خضرة القات ويزيد من نضارة البلس الجاذب للجميلات، كم زواجٍ بدأت قصته من هنا، وانتهت على ساحل أبين، عكس ما زعم الموسيقار أحمد بن أحمد قاسم، وكم مكلومٍ عاد خائب

اليدين مهيض القلب بعد معاناة كان مسرحها بستان الكمسري! كان المذياع ينقل لمن لم يجدوا مقاعد في مسرح التواهي صوت أبي بكر سالم، وكنا نغني خلفه ومعه، أذكر ذلك الصوت جيدًا سنة 1982، كنا في شهر أغسطس، رطوبة عدن تخفقك من كل شيء، الشعر الأسود الكث، البنطال الضيق من الأسفل، فلجة أبيبكر وهدوء معاني المحضار بينما عدن كلها لا تنام، موالعة القات كلهم وقفوا معنا تحت شجرة المانجو الكبيرة، بدأ العود يرفع درجة حرارة المكان والزمان، العود يكاتف الناي، الناي لا يسلم من تصفيق الحاضرين، أبوبكر يتحرك على المسرح، يعطي ظهره للجمهور، يوجه الفرقة، يسقط رجلان من الشجن، يقبل على الناس ويبتسم: يارسولي توجه بالسلامة .. زر صحابي .. وبلغهم سلامي.

بائعات الآيس كريم يحملن حاجاتهن ويقتربن من الصوت الذي لا يترك أحدًا في حاله، صوت أبي بكر أشهر من رطوبة عدن، أول ما يسمعه النازلون من البحر، هو فطام الصبايا وفحوى رسائل العاشقين، صوته يدخل البستان ويخرج باتجاه الصحراء، يتركك قليلًا حين ينزل بين وديان حضرموت، يصافح أهله، يراقصهم الشرح ليلة في الغنا أو في الطويلة، ثم يعود ليصطحبك باتجاه الجبل، تتورد خدود نساء البدو في شبوة حين يتناهى إلى أسماعهن، أما في عدن، فيكفي أن تدعو فتاة للاستماع إلى طرف أغنية بصوت أبي أصيل، وهن يرتعن تحت الأشجار الظليلة، يقطفن الثمر لي في العناقيد.

في الدقيقة الخامسة، اقتحمنا الكورال، وجدنا أنفسنا جالسين بعد العود وفوق اللحن، تمامًا خلف صوت أبي بكر، الرطوبة تزداد، الأطفال فوق العاشرة رموا الكرة، واصطفوا خلفنا: أنا خضت بحر الهوى سبعين قامة، شفت أهوال جم ما هي قليلة، ياضنيني، تشيب بالمواليد، الشبابيك لا تنام في عدن حين يأتي أبوبكر، أما فوق الأسطح ومع شاي الضحى، تجلس المطلقات حول صوت محمد سعد، هذا الشجن الحزين، هذه القدرة على إعطائك الحق في السكوت من دون أن يطلب منك أحد المشاركة، المناديل بيد الرجال وكل أنثى تتناول -مصرها- وتلاحق دمعة على الخد، حزن المسافر، لوعة الخائف من البحر والهارب إليه، ليس لناقد أن يتناول صوت محمد سعد بالتشريح قبل أن يفهم خبايا عدن، المقاهي، مخبوزات الخالات، بطون الهنديات حول الساري، أيادي الصوماليات في الشيخ عثمان، عيون البدويات، سيقان الإنجليزيات، من لم يفهم عدن لن يفهم محمد سعد، ولن يتباكى على كل شجرة في بستان الكمسري، البساتين بيوت الناس الكبيرة، هنا لا تحتاج إلى استئذان، بإمكانك الجلوس وحيدًا، مجموعات فوق حصير كريم، لعينك أن تسرح، لا قيود على النظر داخل بستان الكمسري، هنا عدن، كتف المتعبين من دوار البحر، حاضرة البدو بغترهم كثيرة الألوان، المذياع بيد كل شيخ، القات بلا عود كشاي بلا رفاق، كل شيء ساخن هنا، البحر كريم، حين تمل السمك، تمش قليلًا حتى تستقر في المنصورة وهناك، ستجد حتى السلاحف معلقة من بيوتها ومقدمة لك مع كأس شاي عدني في عز الظهيرة، الأشياء كلها تحدث، وذاكرتي يا صديقي متعبة، لقد اقتحموا المدينة، وهم يقاتلون بلا داع سوى المدد، يريدون البحر، وحين يعطيهم ظهره، قبل الهزيمة، وقبل انتصار عدن سيحاولون إحراق الكمسري، لقد حولها بعد الوحدة إلى ملاه للأطفال مستخفًا بذاكرة الأرض قبل الناس، وهم يحرقون الآن كل ما يقع بأيديهم، أرجوك يا صديقي، حتى أعود على هذا المركب بعد البحر، تترّسوا واحموا جيدًا ذاكرة المدينة، موتوًا جميعًا قبل أن يختنق صوت محمد سعد بالدمع، أرجوك .. لا تودعني، توجه هناك، إنهم يحرقون بستان الكمسري، وصوت محمد سعد لن يموت مادامت عدن، عاشت عدن.

المصدر: جريدة الحياة